موقف لينين من القضية الفلسطينية

أحمد الخميسي*

ظَرحتْ مجلةُ الآداب موضوعَ «الحركة الشيوعية العربية: الواقع والمرتجى» للنقاش والبحث والتفكير. وتحت هذا العنوان العامّ قرأنا إلى اليوم خمسَ مقالات، كان آخرَها ما كتبه في المجلة الأستاذ نايف سلّوم في عدد (٦ / ٧ ـ حزيران / تموز).

بدايةً أوافق الأستاذ سلوم على أنّ هناك اعتباريْن شكّلا حجرَ العثرة أمام تطور الحركة الشيوعية العربية لزمن طويل ومنعاها من أن تكتسب طابعًا جماهيريّاً. **الأول**: ارتباطُ الحركة بنشاط وتصوّرات الأممية الشيوعية، لا سيما فيما يخصّ المسألةَ القومية عامةً وموضوعَ فلسطين خاصةً، ثم ارتباطُها فيما بعد بمقولات سخيفة مثل «التطور اللارأسمالي» ـ وهو طرحٌ مناقضٌ للماركسية التي تعرِّف الظواهرَ بتحديد جوهرها لا بنفي صفاتٍ عنها. أما الاعتبار **الثاني** فهو ارتباط نشأة الحركة في فلسطين بالنشاط الصهيوني.

على أنّ هناك اعتبارًا آخر موضوعيّاً لا يقلّ أهميةً، وهو أنّ الحركة الشيوعية سعت إلى تطبيق مقولاتٍ ماركسيةٍ خاصةٍ بالصراع بين الطبقة العاملة والبرجوازية، في مجتمعات عربية شبه إقطاعية، لم تَعْرف المجتمعَ الصناعي تقريبًا، وتعاني الاستعمارَ والاحتلالَ في الأساس. وهناك أيضًا عيوبٌ واضحةٌ، منها أنّ الحركة الشيوعية ظلت أسيرةَ نشاط المثقفين، أبناءِ الطبقة الوسطى والصغيرة، الذين تحكَّمتْ في الغالبية العظمى منهم اعتباراتٌ ذاتيةٌ وشخصيةٌ، في الوقت الذي لم تشقَّ فيه الفكرةُ الشيوعية طريقَها إلى أصحاب المصلحة الحقيقية في نظرية كتلك.

ولعلّ الغياب التاريخي لأصحاب المصلحة أن يفسِّر ظاهرةَ الانشقاق والتنظيمات المتعددة التي توالدتْ بعضها عن البعض الآخر بلا نهاية. ولم يكن حلُّ الحزب الشيوعي المصري بعد الاتفاق مع السلطة الناصرية تعبيرًا عن الضعف الشخصي للشيوعيين المصريين الذين ضَرَبوا مثالاتٍ خارقةً في البطولة والتحمل، وإنّما كان تعبيرًا عن ضعف موضوعيّ يتعلق بأنّ مصلحة أولئك المثقفين في التغيير كانت مصلحةً معنويةً، مرتبطةً بأحلام المثقف بالعدل والكرامة، لكنّها لم تكن المصلحة الموضوعية لطبقةٍ عاملةٍ، تتصدّى بذاتها للنضال دفاعًا عن قضاياها وتستقتل في ذلك الدفاع إلى النهاية. لقد كان المثقفون الشيوعيون نوّابًا يَحْملونَ عريضةً باسم طرف غَيَّبَتْه ظروفٌ تاريخية، وكان مَقدَّرًا لنوّاب لا يقف خلفَهم أحدٌ أن يضعفوا نظريّاً وتنظيميّاً، لأنّهم وحدهم، كلُّ ما بيدهم هو عريضةٌ للأحلام والمستقبل، يَحْملونها على الطريق وحدهم ما بين السجون والمعتقلات والعزلة، لا يحميهم سوى نبل المثقف وكرامته.

يقول سلّوم إنّ عيب الحركة الشيوعية الأول كان ارتباطَها «بنشاط الأممية الشيوعية» في ما يخصّ المسألةَ الكولونياليةَ والقومية في فلسطين. ويبدو من حديثه أنّه يعني فترةَ لينين لأنّه يضيف: «... والسيطرة اللاحقة للبيروقراطية الستالينية على الأممية الشيوعية.» ويؤكّد سلّوم هذا المعنى حين يكتب فيما بعد أنّ لينين أَعْرب في المؤتمر الثالث للأممية الشيوعية عن اعتقاده بأنّ «على روسيا السوفيتية أن تتعايش، ولفترة من الزمن، مع بلدان أوروبا الغربية في محيط رأسمالي» (كأنّ لينين بهذه الفقرة كان يَنْبذ الصراعَ مع الرأسمالية والاستعمار). ويقول: «وقد أكّد المؤتمرُ الثالث أنّ الأداة الثورية الكفيلة بإنجاز هذه المهمة تتمثل في الجبهة العمّالية المتحدة القائمة على أساس وحدة العمل والنضال بين جميع العمّال، بغضّ النظر عن انتماءاتهم السياسية وعن قناعاتهم الإيديولوجية.» ثم يضيف: «وقد طالب المؤتمرُ جميعَ الأحزاب الشيوعية بالسعي إلى إقامة مثل هذه الجبهة، بغضّ النظر عن الخصوصية الكولونيالية والقومية لبلد من البلدان.» وينتهي سلوم إلى أنّ «مثل هذه التصريحات كانت تصبّ الماءَ في طاحونة المشروع الصهيوني.»

فهل فعلاً طالَبَ لينين الأحزابَ الشيوعية بإقامة جبهات عمّالية بغضّ النظر عن القضايا القومية؟

وهل طالب بجبهة عمّالية في فلسطين تحديدًا، بغضّ النظر عن خصوصية المسألة القومية هناك؟

وهل كانت تصريحاته تصبّ في مصلحة المشروع الصهيوني؟

أولاً: لا بدّ من القول بأنّ هناك خلطًا شائعًا يَدْمج، من دون

---

* ـ كاتب مصري. خرّيج دكتوراه من الاتحاد السوفياتي. مراسل الآداب في القاهرة.

وعي، كلَّ مراحل الثورة الروسية الشيوعية في حالة واحدة متصلة، دون تمييز بين مرحلتيها: الأولى بقيادة لينين، والثانية بقيادة ستالين؛ وهما مرحلتان مختلفتان تمامًا. والحقّ أنّ دمج المرحلتين معًا يُشْبه تمامًا دمجَ المرحلة الناصرية ومرحلة السادات معًا باعتبار أنّ كلّ ذلك هو «ثورة يوليو!»

فهل يكفي لتبيان تلك الحقيقة القولُ بأنّ مؤلَّفات لينين طيلة العهد السوفيتي كانت تَخْضع للرقابة قبل نشرها وتُحذف المقالات التي لا تتماشى مع القادة السوفيت؛ وأنّ هذه الرقابة لم تنتهِ عند لينين، بل امتدت لتَشْمل ما كَتَبَه أدباء عظامٌ مثل مقال الروائي العملاق فيودور دوستيوفسكي عن «المسألة اليهودية»؟ ولعلّ القراء العرب قد لاحظوا في ترجمة الأعمال المختارة للينين إلى العربية ذلك القطعَ المفاجئَ الذي تنتهي به الكثيرُ من المقالات، والنقاطَ التي تَفْصل الفقراتِ بعضها عن بعض؛ أما ما لم يلاحظوه فهو غيابُ بعض الكتابات كاملةً من الأساس.

ما يهمّنا في هذا السياق أنّ ستالين كان هو من اعترف (وبمنطق انتهازي) بالدولة الإسرائيلية، وكان هو مروِّج كل الأفكار الانتهازية التي نبتتْ على شجرة الطموح إلى «الدولة العظمى.»

ثانيًا: لقد كان موقفُ لينين من القضية القومية، لا من فلسطين وحدها، واضحًا. فقد واجهتْه القضيةُ القومية بشدة داخل روسيا، التي ضمّت قومياتٍ مختلفةً بلغ عددُها مائة قومية. كما واجهتْه تلك القضيةُ بالنسبة إلى المستعمرات الروسية. وكانت رؤيتُه لكلّ ذلك تقوم على «حقّ تقرير المصير.» ولن أشير هنا إلى كتبه التي تناولت المسألةَ، وفيها جميعًا لم يتبنَّ لينين الدعوةَ «إلى بناء جبهات بغضّ النظر عن...» [كما يقول سلّوم]، إلاّ في سياق شرحه **للتعصّب القومي** ـ ومن ضِمْنه التعصبُ الروسي الذي ندَّدَ به كثيرًا.

ثالثًا: أحيل القارئ على كتابٍ روسيّ صدر عام ١٩٧٥ بعنوان **سياستان إزاء العالم العربي** لمؤلِّفه: بونداريفسكي. فقد جاء في هذا الكتاب أنّ المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية (الكومنترن) الذي عُقد في آب (أغسطس) ١٩٢٠ ناقَشَ «المسوَّدَة الأولية لقضايا المسألة القومية وقضايا المستعمرات» التي أعدّها لينين خصّيصًا للمؤتمر. وأشارتْ وثيقةُ لينين في البند الحادي عشر إلى خصائص النضال الإيديولوجي في البلدان المستعمَرة والتابعة. ونوّه القسمُ السادس من ذلك البند بضرورة «التوضيح والفضح الدائبيْن أمام أوسع جماهير الشغّيلة في جميع البلدان، وخصوصًا المتخلِّفة، للخداع الذي تمارسه الدولُ الإمبرياليةُ باستمرار والتي تُنْشئ ـ بحجة تأسيس دول مستقلة سياسيّاً ـ دولاً تابعةً لها كليّاً من النواحي الاقتصادية والمالية والعسكرية.»[١]

وتحت إشراف لينين شخصيّاً ناقشت اللجنةُ الخاصةُ بالمسألة القومية هذه الوثيقةَ الهامةَ في جلستي المؤتمر العامتيْن الرابعة والخامسة. وطُرحتْ في النقاش ضرورةُ فضح الصهيونية نظريّاً وتطبيقيّاً، ولاسيّما تأسيس دولة صهيونية في فلسطين تحت الحماية البريطانية. وأشارت مندوبةُ المؤتمر «فرومكينا» بوضوح إلى أنّ «السكّانَ اليهودَ في فلسطين لا يشكّلون أغلبيةً. فهناك أقليةٌ تَسْعى إلى إخضاع جماهير الشغّيلة، وهم أغلبيةُ السكان، إلى نيرِ دُول الوفاق. ويسعى الصهاينةُ إلى كسبِ أنصارٍ لهم في جميع البلدان، وهم يَخْدمونَ بدعايتهم مصالح طبقةِ الرأسماليين. وعلى الأممية الشيوعية أن **تكافح** هذه الحركة بأشدِّ ما يكون من الحزم.»[٢]

وحين قام ممثِّلُ حزب «بوعالي ـ تسيون» الذي يشير إليه نايف سلّوم بطلب الكلمة في المؤتمر، بَذَلَ جهدَه للبرهنة على أنّ نضال الشعوب العربية نضالٌ دينيٌّ لا يَسْتهدف الاستعمار، خلافًا لأهداف الصهاينة، ودعا إلى تكوين طبقة عاملة يهودية تتزعّم نضالَ الفلاحين العرب ضد الإقطاع والاستعمار. لكنّ المؤتمر اعتبر كلمتَه دفاعًا صريحًا عن الصهيونية وحَرَمَه حقَّ الحديث! نشير إلى أنّ اسم ذلك الممثِّل هو «أ. كون،» وقد شارك في المؤتمر عن طريق الخداع والادّعاء بأنّه يمثِّل الحزب الاشتراكي «الفلسطيني!»

وفي ٢٨ تموز (يوليو) عام ١٩٢٠ أقرَّ مؤتمرُ الكومنترن الثاني في جلسته العامة الخامسة بإشراف لينين الموقفَ اللينينيَّ من القضايا القومية وقضايا المستعمرات، وأُضيفَ إلى القسم السادس من البند الحادي عشر ما نصُّه:

«والدليل الواضح على خداع جماهيرِ شغّيلةِ الأمّةِ المضطهَدة، بالجهود المشتركة لإمبريالية دول الوفاق وبرجوازيةِ هذه الأمة، يتجلّى في عملية الصهاينة بشأن فلسطين. كما يتجلّى في الصهيونية عمومًا التي تقدِّم إلى الاستعمار البريطاني، بحجّة تأسيس دولة يهودية في فلسطين، قربانًا هو السكّان العرب الكادحون في فلسطين حيث يشكّل الشغيلةُ اليهودُ مجردَ أقليّة ضئيلة.»[٣]

أما التعديلات التي جرتْ فيما بعد على موقف لينين فقد كانت جزءًا من عملية تراجُعٍ عامّةٍ قام بها ستالين لصالح الدولة، وهي العملية التي شَملت المجالَ الاقتصادي حين أوقف ستالين العملَ بخطة لينين «الخطة الاقتصادية الجديدة» التي تَسْمح بتعايش أكثر من نمط اقتصادي داخل إطار الاشتراكية. كما وأدَ ستالين إلى الأبد الديموقراطيةَ الحزبيةَ التي كانت تَسْمح لأقلِّ أعضاء الحزب شأنًا بمناقشة لينين علنًا واتّهامه بمختلف التهم. ونتيجةً لوأد الديموقراطية، استطاع ستالين أن يصفّي أيضًا أغلبَ

---

١ ـ لينين، **المؤلفات الكاملة بالروسية**، المجلد ٤١، ص ١٦٧.

٢ ـ **المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية**، موسكو ١٩٣٤، ص ١٤١.

٣ ـ المصدر السابق، ص ٤٩٥.

المثقفين الروس، والثوريين، لينفردَ بالحكم. ولم يكن اعترافُ ستالين بدولة إسرائيل سوى امتدادٍ لمواقفه المماثلة من القوميات غير الروسية التي تعيش في روسيا؛ فلم يكتفِ بحرمانها من أبسط حقوقها، بل قام أيضًا بتشتيتها ونقلها جماعاتٍ جماعاتٍ في عرباتِ شحنٍ ليليةٍ من منطقة إلى أخرى، ومن بلد إلى آخر.

إنّ إلقاءَ الضوء على موقف لينين من القضية الفلسطينية لا يَسْتهدف الدعايةَ لهذه الشخصية الثورية التي تَرَكَتْ بصماتِها على القرن العشرين. ولكنْ من المهم أن ندرك عدالةَ قضيتنا، وأن نُدرك أيضًا أنّ هناك مفكرين أو ثوارًا آخرين كانوا يَفْهمون القضيةَ على النحو الذي نَفْهمه نحن. وكلُّ ذلك يرسِّخ فينا الشعورَ بأنّنا لسنا وحدنا، ولم نكن وحدنا، في تصورنا المبدئي أنّ فلسطين أرضُنا.

أخيرًا، لا يبقى سوى أن أقول إنّ المواقف الصائبة لا تبرِّر الأخطاءَ، كما أنّه لا ينبغي للأخطاء أن تبتلع الصواب.

القاهرة

تصحيح لمعلومات خاطئة

عز الدين المناصرة*

قرأتُ في الآداب (٧/٦، ٢٠٠٥) حوارًا مع الصديق الشاعر السوريّ هادي دانيال، زعم فيه أنّ سليم بركات أصبح محرّرًا لمجلة **فلسطين الثورة** بدلاً من طلال رحمة. وهذا القول مخالفٌ للحقيقة:

أولاً: لم يكن الشهيد طلال رحمة، إطلاقًا، محرِّرًا ثقافيّاً لمجلة **فلسطين الثورة**.

ثانيًا: لم ينتقل سليم بركات ليصبح محرِّرًا ثقافيّاً لهذه المجلة بدلاً من الشهيد طلال رحمة.

أما الحقيقة فهي كالتالي:

كان طلال رحمة وسليم بركات محرِّريْن في القسم الثقافي لمجلة **الحوادث** اللبنانية، وأجريا حوارًا ثقافيّاً معي في هذه المجلة. وقد شكَوا لي سوءَ معاملة إدارة مجلة **الحوادث** لهما بسبب كتابتهما عن حصار مخيّم تل الزعتر الفلسطيني، وقالا لي بوضوح إنّهما يَرْغبان في الانتقال إلى **فلسطين الثورة**. لكنّني حاولتُ ثنيهما عن ذلك؛ فقد كان راتبُ كلّ واحد منهما في **الحوادث** ١٢٠٠ ليرة لبنانية، بينما كان راتبي ـ وأنا المحرِّر الثقافي لـ **فلسطين الثورة** (يناير ١٩٧٤ ـ يناير ١٩٧٧) ـ هو ٥٥٠ ليرة لبنانية. لكنّهما أصرّا على رغبتهما في الانتقال. هنا نقلْتُ رغبتهما إلى أحمد عبد الرحمن، رئيس تحرير **فلسطين الثورة**، وتابعتُ الموضوعَ حتى حصلنا على قرار لهما من ياسر عرفات. وهكذا انتقل سليم بركات ليصبح محرِّرًا في القسم الثقافي لـ **فلسطين الثورة** الذي كنتُ رئيسَه. أما طلال رحمة فقد عمل محرِّرًا في مجلة **فلسطين** الصادرة باللغة الفرنسية بإشراف محمود اللبدي. ثم تسلّم سليم بركات مهمة المحرِّر الثقافي، بدلاً منّي، في يناير ١٩٧٧. وبقيتُ بلا عمل حتى أيلول ١٩٧٧، حيث غادرتُ إلى صوفيا. ورفضتُ طيلة وجودي في صوفيا أن أستلم قرشًا واحدًا من منظّمة التحرير الفلسطينية.

ثم إنّ تداعيات الحوار مع هادي دانيال تجعلني أشير إلى بعض الحقائق:

أولاً: كان أمين سرّ اتحاد الكتّاب والصحافيين الفلسطينيين أردنيّاً، لم يَنْشر كتابًا واحدًا في حياته، ولم يعترض مثقفٌ فلسطينيٌّ واحدٌ على ذلك.

ثانيًا: كان رئيس اتحاد الكتّاب والصحافيين الفلسطينيين ـ فرع لبنان أردنيّاً، ولم يعترضْ أحد أيضًا.

ثالثًا: قررت الأمانةُ العامةُ للاتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين في أول الثمانينيات أن يكون محمود درويش رئيسًا لتحرير مجلة **الكرمل**، وأن يكون إمّا عز الدين المناصرة أو فيصل درّاج مديرًا للتحرير. آنذاك اعترض درويش، واختار إلياس خوري وسليم بركات بدلاً منهما، ولم أعترض. وبرّر درويش ذلك لي آنذاك بقوله: «لا أريد أن أخسرك كصديق إذا ما عملنا معًا!»

رابعًا: عندما تمّ تعييني سكرتيرًا لتحرير مجلة **شؤون فلسطينية** الصادرة عن مركز الأبحاث، بدلاً من اللبناني جورج ناصيف، رفضتُ الدوامَ في عملي إلاّ بعد أن ذهبتُ إلى جورج، وتأكّدتُ منه أنّه سيترك المجلّةَ برضاه.

خامسًا: هناك مثقفون عرب كبار شاركوا في الثورة، وهناك انتهازيون ساهموا فيها بطريقة سلبية. هناك مثقفون شرفاء؛ وهناك ناشئون ضخّموا دورهم لاحقًا. وعندما سلّمني بلال الحسن، رئيسُ تحرير **شؤون فلسطينية**، ملفّات المجلة، سلّمني ملفّاً سرّيًا. قرأتُه، فوجدتُ أسماء لثلاثين مثقفًا عربيّاً يتقاضوْن رواتبَهم بقرار من ياسر عرفات، دون أن يكتبوا حرفًا واحدًا في المجلة! وحين سمعوا أنّني تسلّمتُ موقع سكرتير التحرير، هرع بعضُهم إليّ في محاولةٍ منهم لمعرفة ما إذا كنتُ أعرف السرّ، فتظاهرتُ بعدم المعرفة.

عمّان

* شاعر وناقد من فلسطين.